آمديو تشنشيني

حرّروا رجاءكم !

طرق تربية الرجاء في الشاب

نقله إلى العربية
الأب ألبير هشام نعّوم

بغداد ٢٠١٧

صدر هذا الكتاب باللغة الإيطالية تحت عنوان:

Amedeo Cencini

Liberare la speranza

Percorsi pedagogico – vocazionali

© Paoline Editoriale Libri, Figlie di San Paolo, 2006.

مقدمة المترجم

أقدّم للشباب الأحبّاء وللمسؤولين عن تنشئتهم، ترجمة كتيّب آخر للأب آمديو تشنشيني وهو بعنوان "**تحرير الرجاء**، طرق تربوية في الدعوة"، لكنّي فضّلتُ أن يكون العنوان أكثر موجّهًا للقرّاء، فجعلته: "**حرّروا رجاءكم!**، طرق تربية الرجاء في الشاب".

في مقابلته العامّة مع المؤمنين يوم الأربعاء ٧ كانون الأول ٢٠١٦، قرّر البابا فرنسيس أن يبدأ سلسلة محاضرات في التعليم المسيحي حول موضوع الرجاء، وقال في هذا الصدد: "هذا مهم جدًا لأن الرجاء لا يخيب. التفاؤل يخيب الإنسان، أم الرجاء فلا! نحن بحاجة إلى الرجاء اليوم، في هذه الأزمنة التي تبدو مظلمة ونشعر أنفسنا أحياناً ضائعين فيها أمام الشرّ والعنف اللذين يحيطان بنا، وأمام ألم كثيرٍ من إخوتنا (...) ولكن ليس علينا أن نترك الرجاء، لأن الله بحبّه يسير معنا. يمكننا جميعًا أن نقول: "أنا أرجو لأن الله بجانبي" (...)".

نتّحد مع قداسته في تقديم هذا الكتيّب وخاصّة للشباب الذين بيدهم يوقدون شعلة الرجاء وهم، في الوقت ذاته،

أكثر شريحة تعاني من نقصه في حياتهم خصوصًا في ظروف بلدنا الحالية.

لقد أبدع المؤلف في وصف خبرة الرجاء وطرق تربيته عند الشاب، لدرجة لا أبالغ إن قلتُ فيها إني لم أقرأ يومًا كتابًا جعلني أكتشف الرجاء مثل هذا الكتيّب، فقد جعلني شخصيًا أجدد رجائي بإلهنا، وكلّي ثقة أن قراءته ستنزع اليأس من النفوس، بل ستجعلها ترى الرجاء في وسط يأسها، كما يؤكد المؤلف في هذه الصفحات.

أشكر الأب تشنشيني الذي سمح لي هذه المرّة أيضًا بترجمة كتيّبه وتفضّل بأسلوبه البسيط والراقي بكتابة مقدّمة لقرّاء اللغة العربية في العراق.

أهدي هذا الكتيّب إلى كل الشباب المسيحيين العراقيين في بلدنا وخارجه، عسى أن تتّقد من جديد شعلة الرجاء في نفوسنا، وكم نحن بحاجةٍ إليها !

الأب ألبير هشام نعّوم

مقدمة الترجمة العربية

هناك من يقول إننا نعيش في حضارة تتّسم باليأس. لا أعلم إن كان هذا صحيحًا وفي أيّ مكان، ولكن مجرّد التفكير بهذا الأمر شيءٌ محزن، خاصّةً أن الحضارة تعني عقلية، إحساس،... إنها شيءٌ يُتنفَس كالهواء ويدخل في عمقنا، مثل فيروس معدي، يخترق كلّ مكان مثل ظاهرة تلوّثٍ عالمي، من الشمال إلى الجنوب، ومن الشرق إلى الغرب.

هل تستطيع هذه الحضارة أن تدخل في الكنيسة أيضًا؟ بالتأكيد. فالكنيسة حاضرة في هذا العالم، بالتالي ليس لها حصانة من هذه الفيروسات.

هذا ما يعلمه البابا فرنسيس الذي لا يفوّت فرصة دون أن يتكلم على الرجاء وعلى ضرورة أن يكون المسيحيون اليوم أنبياء رجاء، ويوبّخ المؤمنين، وخاصّةً الكهنة، الذين أصبحوا أنبياء المصيبة.

لهذا السبب كتبتُ هذا الكتيّب، كعلامة رجاء. وأنا سعيدٌ أن يُترجم إلى اللغة العربية بفضل صبر ومهارة الأب ألبير، كرسالة رجاء بسيطة تصل لإخوة يتألمون

طويلاً في وضعٍ يبدو مفتقرًا لهذه الفضيلة الصغيرة والعظيمة في الوقت ذاته. هذه الصفحات رسالةٌ تريد أن تساعدنا لنفهم بعض الأمور المهمة في حضارة اليأس هذه.

أولاً: إن الرجاء واليأس قطبا الحياة، كلٌّ منهما تبدو وكأنها تعارض الأخرى وتستثنيها، فإما أن يوجد الرجاء أو يوجد اليأس. ولكن لا يمكن، في الواقع، أن نفهم الرجاء دون اليأس، لأنّ كلّ واحدة منهما تفسّر الأخرى. فمَنْ عرفَ الرجاء دون أن اختبر أولاً اليأس؟ كيف يستطيع أحدٌ أن يتكلم على الرجاء إذا لم يختبر محنة غيابه؟ مثلما كيف يتمتع أو يقيّم المرء الفرح وهو لم يتألم يومًا؟ أو كيف يستطيع أن يتحمّل الألم إذا لم يكن قد فرحَ مرةً؟ لسنا إذًا خائفين من الاعتراف بأننا جربنا نحن أيضًا لحظاتٍ من الشكّ والترك وخسارة معنى الحياة، وحتّى اليأس. فالإيمانُ بالله يتضمن أيضًا هذه اللحظات التي تجعلنا قريبين من الرجال والنساء الذين ضلّوا طريقهم في زمننا، ويجعلوننا نتقبّل الله كسببٍ وحيد لرجائنا.

ثانيًا: يولد الرجاءُ في اللحظة وفي النقطة ذاتها التي قد يولد فيها اليأس. فالرجاء لا يولد كثمرةٍ عفوية للإيمان، بل أيضًا وخاصّةً، عندما يواجه الإيمانُ والحياةُ الفشلَ

والأزمة وإنكار ما كان الشخص يؤمن به دومًا. فبطرس تعلّم الرجاء ليس عندما كان يمشي مسرورًا، وربما أيضًا بغرور، على ماء البحر، مثل المعلّم، بل عندما بدأ يغرق. هناك بالضبط، عندما رأى الموت بعينيه، بدأ يصرخ برجائه: "يا ربّ، نجّني!". فعندما تعلو صرخة اليأس داخل الإنسان، فربما تكون ذاتها صرخة الرجاء أو صرخة ولادته.

ثالثًا: إذا كنّا نعيش اليوم في حضارة اليأس، ليس علينا أن نخاف من مواجهة هذا الواقع، وليس علينا القول إنّ الإنسان لم يكن أبدًا بعيدًا عن الله مثل اليوم. فقد يكون العكس! إن الإنسان لم يحتاج إلى الرجاء أبدًا مثل اليوم، يحمل في داخله صرخة بطرس وهو يتخبط بين الأمواج ويختبر ضعفه، فهو منفتح جدًا، على الأقلّ عمليًا، على إمكانية خلاصه.

من الأفضل أن نعيش في حضارة يأس من أن نعيش في حضارة لا أبالية ومكتفية. لأنه لا يوجدُ أحدٌ أكثر من اليائس يشتاقُ كثيرًا إلى الرجاء! أبانا أبراهيم، الذي "آمن راجيًا على غير رجاء" (روما ٤/١٨)، يجعلنا فعلاً رجال ونساء رجاء! وهذا ما أتمناه لكلّ قارئ.

آمديو تشنشيني

تقديم

أتحدى أيّ واحدٍ أن يجد "مكاناً كنسيًا" يقوى فيه الرجاءُ، ويتقاسمه الجميع، مثل مؤتمر دعوات. فهناك يجلسُ الرجاء على مائدة المؤتمرين كأنه من ضيوف الشرف، وإلى جانب كلّ مشترك في المؤتمر.

فالرجاء، في الحقيقة، أساسُ هذه اللقاءات. وعن الرجاء تتحدث المداخلات المختلفة من وجهات نظرٍ عدّة. وبرجاءٍ يسمعُ المرء ويكتب ملاحظات ويخرج وهو يحملُ شيئًا. هو الرجاء الذي يحرّك المؤمنين. وهناك كثيرون من العاملين في حقل الدعوات ممن يتركون نشاطاتهم لبضعة أيام ليشتركوا في مؤتمر باسم الربّ "رجائنا"، ويعبّر كلٌّ منهم عن رجائه، وجميعهم يبنون رجاءً أقوى من كلّ إحباط وكلّ محاولة يأس.

لا يحلم أحدٌ بأن يشارك أو يساهم في مؤتمر دعوات ما لم يكن منتعشًا بالرجاء، برجاءٍ محدد وليس أيّ رجاءٍ كان، الرجاء الذي يأتي من الإيمان بموت وقيامة ربّنا يسوع المسيح، لكنه يتّخذ هويةً لا لبس فيها: إنه رجاء الدعوة.

إنّ الرجاء معروف جدًا في كنيسة اليوم، ولا حاجة أن نشرح مضمونه. كما إنه في الوقت ذاته كتوم، متواضع، لا يحبّ أن يبرز، يفضّل أن يدفع صاحبه من الخلف، في الخفاء دون أن يراه أحد، مثل محرّك صامت لكنّه جبّار. وهناك، في الواقع، مَن يسخر منه لكنه لا يحضر عادةً في مؤتمر دعوات، لأنه مشغول بإعداد احصائيات وحسابات تتنبأ بأننا سننقرض خلال فترةٍ قصيرة. وإذا حضر، يُعرف من وجهه ونبرته الحزينة التي يبرزها دون خجل، وهو لا يعلم أن الحزن في الدعوة ينتج حزنًا، وليس دعوات!

نعني بذلك أن هذه الفضيلة، أو فلنسمّيها موقف القلب أو هبة الروح أو إصرار المؤمن، سمةٌ لا غنى عنها لمنشّط الدعوات الحقيقي. ومن ليس له، أرجوه أن يتنحّى جانبًا. إذ لن يكون شاهدًا، وسيُبان عليه ذلك بألف طريقة. سيُلاحظ مباشرةً أنه فقدَ الرجاء أو بقي له القليلُ منه، أو تقع هذه الفضيلة عنده في خطر التحوّل إلى مجرّد حسابات رياضية، فتدّعي الواقعية أو التغلّب على نقيضها الإحباط الوثني.

في كل الحالات يبقى الرجاءُ أمرًا لا غنى عنه في حياة الكنيسة. إذ لا تُسمّى جماعة مؤمنين تلك التي ترجو

قليلاً. يمكن أن تنقص في الجماعة بعض الأمور، ولكن ليس الرجاء. كانت هناك فتراتٌ في الواقع عاشت فيها الكنيسة الرجاء بالتمام، وتزامنت تلك الفترات مع ظروف تاريخية اتّسمت بخبرة الضعف وبمشاهد على الأفق لا تبشّر بالخير...

والرجاء هو الذي حوّل هذا الضعف وعدم اليقين إلى مكان نعمة وثمار خصبة غير متوقعة وضمنَ، في الوقت ذاته، شجاعة المثابرة والإصرار على الأمانة. بعد هذا كله، ألا يمكن أن يكون زمننُا واحدًا من تلك الأزمنة؟

إذًا، سنؤكد بقوة: دون رجاء لا توجد كنيسة، ليس فحسب، بل لن يوجد حتّى إعلانُ الإنجيل. بدون الرجاء سيتوقف كل شيء في اللحظة الحاضرة، في محاولة يائسة للتشبث بها من خلال توقيف الزمن، إن كان هذا ممكنًا، لأن المستقبل يهددنا ولا يوعدنا بأي خير.

دون رجاء لن تقوم دعوات ولن يكون أحدٌ مستعدًا ليكرّس حياته لله الذي يدعو، أو ليرافق أخًا أصغر على طريق مسيرة تمييز دعوته.

يجعلُ الرجاءُ الإنسانَ يؤمن، يعطي وقتًا ومجالاً لخبرة لا بل لخبرات الحياة. الرجاء هو حسّ المغامرة

المفتوحة، مغامرة الحياة التي يواجهها الإنسان بروحٍ منفتحة على العلاقة مع غير المتوقع. ولكن الرجاء هو أيضًا معنى وحقيقة الوجود بحدّ ذاته، بما أنه يدخل في عمق واقع الإنسان.

قبول الرجاء أو رفضه يعني قبول أو رفض الإنسان أن يكون إنسانًا (ع. مونيير)*.

أن نقبل تحدّي الرجاء يعني أننا نريد أن نصير بشرًا حقًا، برأسٍ مرتفع بين الرياح والشمس، متواضعين وشجعان أمام تعب العيش وانتصار الشرّ الواضح الذي يجرحُ الأرض[1].

ولهذا السبب احتلّ الرجاء مركز اهتمام كنيسة إيطاليا في هذه الفترة.

ولهذا السبب أيضًا كان الرجاءُ موضوعَ تأمل مؤتمر الدعوات الذي أقيم بروما، في دوماس ماري (Domus Marie) في أول أيام عام ٢٠٠٦ كتقليدٍ قوي ومجرّب في كنيسة إيطاليا.

---

* عمانوئيل مونيير (١٩٠٥-١٩٥٠) فيلسوف فرنسي (المترجم).

[1] من مقدمة المونسنيور برونو فورتي (Bruno Forte) في المؤتمر الأبرشي لكنيسة كييتي فاستو (Chieti – Vasto) في كانون الثاني ٢٠٠٦.

يتضمن نصّ الكتّيب المحاضرة التي ختمت هذا المؤتمر، ونعرضها الآن على جمهورٍ أوسع، كعلامة صغيرة على الرجاء الكبير الذي أنعش ذلك اللقاء بين منشطي الدعوات ولا زال ينعش كنيستنا في إيطاليا، لتكون دومًا كنيسة مؤمنين ممتلئين من الرجاء الذي يقوى على كلّ يأس.

أودّ أن أختم هذا التقديم بكلمات البابا يوحنا بولس الثاني في كتابه المخصص لموضوع الرجاء، على عتبة الرجاء، التي دعانا ويدعونا إلى الآن لعبورها:

لابدّ أن... نعيد الثقة بأن هناك إلهًا يمسك بيده مصائر هذا العالم الفاني، إلهًا عنده مفاتيح الموت ومثوى الأموات (راجع رؤيا ١/١٨)، إلهًا يملك الألف والياء في تاريخ الإنسان (راجع رؤيا ٢٢/١٣)، سواء الشخصي أو الجماعي. وهذا الإله هو الحبّ (١يوحنا ٤/٨، ١٦): حبّ صار إنسانًا، حبّ مصلوب وقائم، حبّ حاضر بلا توقف بين البشر[2].

[2] Giovanni Paolo II, *Varcare la soglia della speranza*, Milano 1994, pp. 243-244.

مقدمة

الرجاء هو سندريلا الفضائل الإلهية، يفرح اللهُ به إذا كان صحيحًا ما يقوله بيكي (Péguy*) أو بالأحرى ما يضعه على لسان الله: "الإيمان الذي أفضّلُهُ هو الرجاء". كما إنه فضيلة حميمية في مؤتمراتنا عن تنشيط الدعوات ولمن يعمل في هذا المجال، في هذا الزمن الذي قلّت فيه ثمار الدعوات، إن لم يكن موسومًا في الواقع بـــ"يأس الدعوات"، هذا المرض السيء والمعدي قليلاً لدعواتٍ أخرى...

يلفّ الرجاء كلّ حياتنا هنا: فلا ننتمي إلى المسيح على هذه الأرض إلاّ عن طريق الرجاء. لذلك في تعليم الرجاء توجدُ كلّ خبرة الخلاص.

نريد في هذا التأمل أن نتكلّم عن الجانب التربوي لهذه الفضيلة اللاهوتية. كيف نصبح أناس رجاء يساعدون على الرجاء، بما أننا نعتقد أن الرجاء نفسه عنصر أساسي في الدعوة، أي لا يستطيع أحد أن يشعر بالدعوة

* (١٨٧٣-١٩١٤)، كاتب وشاعر فرنسي (المترجم).

ويقرر الإجابة على الدعوة وتحقيق التلمذة، إن لم يكن عن طريق الرجاء.

إذا كان الرجاء فضيلة متواضعة وكتومة، يصحّ القول أيضًا على تربية الرجاء، فهي لا تحتل اهتمام العلوم الحديثة المختلفة. إذًا، الرجاء وتربيته يرتبطان ببعضهما، كأنه زواج بين عائلتين فقيرتين، وإن كان هذا الزواج غير معتاد الاحتفال به، فالدراسات حول هذا الموضوع ليست كثيرة. إنه سبب إضافي لمحاولة التأمل وقول شيء عنه دون ادّعاءات كبيرة.

يُقسّم هذا التأمل إلى أربع أجزاء: سنحاول في الجزء الأول أن نجمع العناصر التي تؤسس الرجاء من وجهة نظر نفسية وتربوية. وسنحدد في الجزء الثاني بعض الطرق التعليمية العامّة التي نستنتجها مباشرةً من العناصر المؤسِسة. وفي الجزء الثالث سنحاول أن نوضّح الجانب الديناميكي النفسي لفعل الرجاء. وسنعبر في الجزء الرابع إلى الطرق التربوية لتحرير الرجاء. وبالوقوف عند العنوان، لا يبدو أن الرجاء بحالة جيدة، إذ يحتاج أن يتحرر... فمن قام بذلك؟

الرجاء من وجهة نظر نفسية تربوية: العناصر التي تؤسسه

لا يحتاج الرجاء إلى شرحه أو تعريفه لأنّه يشكّل جزءًا من خبرة الجميع، وكلنا تقريبًا عرفناه واختبرناه في بعض لحظات الحياة. فجميعنا رجونا ونرجو...

ولكن من المفيد لتحليلنا هذا، محاولة أن نرى عن قرب ومن وجهات نظر مختلفة، العناصر التي تشكّل الرجاء كموقف مركزي وحاسم أكثر مما نتصوره[٣].

موضوع الرجاء

يعني الرجاء قبل كلّ شيء الرغبة بشيء ذي معنى جوهري ومهم لهويتنا الشخصية. أن نرجو ونرغب، يعني في الجوهر أن نكون أنفسنا على حقيقتها. ومن يرجو، بصورة مباشرة أو غير مباشرة، يضع نفسه في

[٣] مهم ما يقوله حول هذا الموضوع، من وجهة نظر تربوية، باكوتشي (M. Pacucci) في كتابه:
Dizionario dell'educazione, EDB, Bologna 2005, pp. 401-402, 666, 911-912.

علاقة مع من يكون، ويرغب أن يكون، ويصير كذلك. فالحقيقة، وبدقةٍ أكبر إمكانية اكتشاف الحقيقة، أساسية لنستطيع أن نرجو ونعرّف الرجاء.

فمن الطبيعي أن نرجو شيئًا جديدًا وعظيمًا، وليس أشياء عادية يسهل الحصول عليها أو بديهية نعتاد الحصول عليها دون فشل ودون أن ندفع ثمنًا. يعرّف كيركغارد* الرجاء بأنه: "الشغف لما هو ممكن"، ولكنّه يركز بصورة خاصّة على عنصر الشَجَن والشفقة، ذلك الحبّ المؤلم والمُفرِح الذي يربط قلبَ الإنسان بما يشتاق إليه وينتظره كثيرًا. لاهوتي الرجاء مولتمان (Jürgen Moltmann) عرّف الرجاء، في بداية الستينات، بأنه "الفجر المتوقع والنهار الجديد الذي يلوّن كلّ شيء بنوره"، ويوضّح أن عيش الرجاء يعني "سحب مستقبل الله إلى حاضر العالم"[٤].

يتضمن الرجاء الإدراك بأني أعاني من شيء أو من شخص لا يوجد الآن، ولكنّي أشعر به وأشتاق إليه. يرجو الناس أشياءً أو ظروفًا، لكنهم يرجون أشخاصًا أيضًا،

---

* (١٨١٣–١٨٥٥)، فيلسوف ولاهوتي دنماركي (المترجم).

[٤] من مقدمة المونسنيور برونو فورتي (Bruno Forte) في المؤتمر الأبرشي لكنيسة كييتي فاستو (Chieti – Vasto) في كانون الثاني ٢٠٠٦.

يرجون حضورهم وكلمتهم والنور الذي يدخل حياتهم من خلالهم. وهذا واضح في الرجاء المسيحي ("اللهم... إليك بكرتُ إليك ظمئتْ نفسي وتاق جسدي. كأرضٍ قاحلةٍ مجدبةٍ لا ماء فيها... إذا ذكرتك على مضجعي تمتمتُ بك في الهجعات" مزمور ٦٢/ ٢، ٧). فالرجاء المسيحي يسمو على الرجاء الطبيعي من جميع الجهات.

لا يمكن أن يكون الرجاء مجرّد تنبؤ، كما يتوقع أحدهم بأن يكون الجوّ مشمسًا يوم غد، وليس هو مجرّد حسابات لا تترك مجالاً للشكّ وللسرّ في ثنايا الحياة. وهنا علينا أن ننتبه ألاّ نستخدم توقعات الاحصائيات بطريقة سطحية وقدرية، وكأنها استباقٌ للمستقبل غير قابل للشكّ. لا بأس أن نعيش الواقع ونخمّن إلى أين تذهب بنا التوقعات (على سبيل المثال موضوع الدعوة) ولكن دون أن ننسب قيمة نهائية لحسابات الاحصائيات، لكي لا نقع في فخ "التفكير بوضوح إلى درجة لا نرجو فيها من بعد"، كما كان يشير كاموس (Camus*).

* ألبير كاموس (Albert Camus) (١٩١٣-١٩٦٠) فيلسوف وجودي وكاتب مسرحي وروائي فرنسي (المترجم).

الشخص الذي يرجو

يتحقق الرجاء بمبادرة شخصية، لذلك يتطلب الثقة بالنفس بحيث يعبّر الرجاء عنها، على الرغم من إدراك محدودية الشخص الواقعية. فالشخص يرجو نفسه، يثق بإمكانية حصوله على موضوع الرجاء أو بتحقيق ما يرجوه.

ولكن الرجاء، في الوقت ذاته، يعني أن ندرك ضعفنا أكثر، ونعترف بصدق أنه لا يعتمد كلّ شيء على الشخص وعلى قدراته، بل يعتمد على عوامل واحتمالات أخرى، على أشخاص آخرين، على شيء لا يستطيع المرء السيطرة عليه بصورة كاملة، أي على حرية الآخرين[٥].

يضع الرجاء الأمرين سويةً، وإن بديا متناقضين: الثقة بالنفس والشعور بالضعف. وهذا يتضمن بطبيعته خطرًا وشيئًا من عدم اليقين.

---

[٥] حتى الله إذا رجا، فهو يرجو بالمعنى ذاته. يرجو خلاصنا، ورجاؤه يرتبط بحريتنا، ولأننا أحرار فخلاصنا ليس شيئًا حتميًا، لأنه يعتمد علينا، ولكنه يبقى موضوع رجاء الله. والله يترك ذاته لحريتنا ويثق بأننا سنترك له أنفسنا ليخلصها.

أساس الرجاء

يمكن حلّ مشكلة الخطر وعدم اليقين أو مواجهتهما انطلاقًا من الثقة التي يمنحها الشخص للآخر فيرجو به من خلالها. أي أن فعل الثقة والاستسلام هذا يصبح طبيعيًا بالنسبة للشخص الذي يقرر بحرية لمن يستسلم وبمن يثق، ولكنه لن يستطيع الامتناع عن فعله وسيثق في النهاية بشخصٍ ما ويستسلم له، حتّى وإن لم يُعر اهتمامًا أو استثنى هذا الموضوع. من المستحسن، إذًا، الاهتمام بالشخص الذي نستسلم له، بصورة ضمنية أو واضحة. ومن المهم أن نعرف "بمن" وضعنا ثقتنا.

ثباتُ وصلابةُ أساس الرجاء عند الشخص الذي وُضِعت فيه الثقة، يعطي قوةً للرجاء ذاته.

نبيّن مرةً أخرى، في النصّ أدناه، كم هو صحيح ما نقوله بالنسبة للرجاء المسيحي.

ليس (الرجاء) من بعد فعلاً ينبثق مني، أو مجرّد تشبثٍ بأصولي، أو شيئًا أحصلُ عليه بنفسي. ليس السيرُ نحو اللامحدود مبادرتي الشخصية، وليس جهدًا قويًا أفخرُ به بنفسي، وأهرب به من محدوديتي الحالية. فهذا الرجاء يأتيني من خارج نفسي، أجده في خارجي ويخترق داخلي، يترك صدى في أذني، حتى إذا

مسّ قلبي، فهو يصيغني من الخارج ويحررني من الداخل[6].

والرجاء "في" الله[7]، إلى درجة تعريف الله بالرجاء نفسه: "أنت، يا ربّ، رجائي" (مزمور ٧١/٥؛ راجع إرميا ١٤/٨؛ ١٧/١٣).

الجزء الذي يرجو

يولد الرجاء من الرغبة، فهو يعبّر عن الفعل "أرغب" إلى درجة أننا نعرّفه به، فالرجاء ينبع من الرغبة ويأخذ منها القوة. من يرغب قليلاً، يرجو قليلاً. الرجاء هو رغبة شجاعة وصبورة جدًا في الانتظار وإبقاء النظر موجهًا نحو موضوع الرجاء ومقاومة تجربة الاكتفاء بشيء أو بشخص منتظر ذي قيمةٍ أقلّ منه. انظر، على سبيل المثال، شارل دي فوكو مع ١٥ سنة عاشها في البرية، "برية" بكل ما لهذه الكلمة من معنى، ينتظر صديقًا

---

[6] L. Giussani, *Dalla speranza alla pienezza della gioia*, in Id., *Porta la speranza. Primi scritti*, Marietti, Genova 1997, p. 160.

[7] هناك العديد من التضرعات في سفر المزامير بهذا المعنى، على سبيل المثال: ٢٢/٥؛ ٢٥/٣، ٥؛ ٢٧/١٤؛ ٣١/٢٥؛ ٣٣/١٨، ٢٢؛ ٣٧/٧، ٩، ٣٤؛ ٣٨/١٥...

يلتحق به ولن يأتي، ويضع أسسًا لإعلان الإنجيل في مجتمع يعاديه، ولن يحققها هو ولن يجني منها الثمار، بل سيموت مضروبًا بهذه العداوة، لكن دون أن يترك الرجاء، فيموت وهو يرجو[٨].

الرجاءُ الذي يرغب وينتظر، يصبحُ موقفًا داخليًا يُشرك معه كلّ الشعور، يوجدُ في كلّ قرار، ولكنه يوجد أيضًا في طريقة تخيّل المستقبل. ويمكن هنا السؤال: إذا كان العقل يصدّق والقلب يحبّ والإرادة تقرر، فمن منهم يرجو؟ الإجابة هي أن الأجزاء الثلاثة ترجو... فالرجاء فعل تراكمي، يختصر ويعبّر عن الإنسان بكليّته في فعل إنساني.

وهكذا من وجهة نظر الزمن: ينتصر الرجاء على الزمن، بل يمكننا القول إننا لا نعطي معنىً للزمن دون القدرة على الرجاء. وحياة الإنسان رجاءٌ مستمر بشيء (بشخص) لا يوجد إلى الآن ونتألم لغيابه (في الحاضر).

---

[٨] أو حالة أخرى تتعلق بدعوة الأعضاء الأوائل في رهبانيتي (أبناء المحبة) الذين، بسبب سلسلة من ظروف شخصية، لم يتجاوز عددهم أبدًا لفترة حوالي قرن أكثر من أخوين، إلى أن وصل العدد إلى واحد، وبدت وكأنها النهاية. بينما كانت في الحقيقة بداية جديدة... بفضل شجاعة الرجاء لدى هؤلاء الإخوة! إنه درسٌ جميل لمن لا يعرف أن يقرأ اليوم كمؤمن أزمة الدعوات.

وهذا يعني الابتهاج بشيء (أو شخص) حضرَ أخيرًا بعد أن انتظرناه طويلاً، فانتظارُه طويلاً (في الماضي) أو ابتهاجُنا برؤيته، علاماتٌ على حضوره من شأنها أن تزيد من الرجاء، وتجعلنا أخيرًا نستعدّ للمستقبل، مطمئنين من الماضي، مع الثقة بأن المُنتظر سيأتي مرةً أخرى أو أن رغبتنا ستُشبع، مثل جدلية مستمرة بين رجاء سيتحقق وآخر لا يتحقق، وهذا يزيد ويطهّر الرغبة ذاتها. إنّه سرّ الرجاء!

تكشف هذه الحقيقة حضارة اليوم بكل جوانبها، هذه الحضارة التي لا تنظر إلى عمق الرغبات ولا تملك أدنى فكرة عن الرجاء وتحبّط حتّى فكرة المستقبل.

الواقع المحيط

يتضمن الرجاء، في الوقت ذاته، الإدراك بأنه ممكن والثقة بأن الأمور ستتحسن، والرهان بمستقبل أفضل... الرجاء هو الإيمان بأن الواقع لا يعادينا، والحياة ليست ندًّا لنا، وأن الآخر يستطيع مساعدتي والصفح عني، وأن الله سيصغي إليّ...

بهذا المعنى يحمل الرجاء معه تفاؤلاً أو يولد من تفاؤل محتمل أمام الواقع بالعموم، ويقود إلى الثقة به، أي إلى حكم إيجابي وأخوي نحو ذلك الذي وضعنا فيه ثقتنا. فالرجاء هو تفاؤل الإيمان.

ولكن، وفي الوقت ذاته، من يرجو فهو يعبّر عن نظرة مختلفة عن تلك الناجمة عن الأحداث، أو على الأقل ليست نظرة منطقية بالكامل ولا متوقعة أو بديهية، بل تذهب إلى أبعد من الحقيقة المحيطة بنا. إنها دليل آخر على طبيعة الرجاء المعقدة، إنه سرّ الرجاء!

عمومًا، عندما لا يوجد موقف التفاؤل هذا، سيظل الإنسان ينتظر أمورًا عظيمة من الحياة، لكن دون رجاء وثقة في الحياة وفي الآخرين، بل بضيق نفس وبتوتر كأنه يريد أن يصارع ويقتلع حقوقه بأسنانه، في معركة مع الآخرين ومع الحياة نفسها، يرافقها شكّ محزن بأنه قد لا ينجح.

طرق التربية على الرجاء

نقصد بطرق التربية الإرشادات التربوية العامّة، كالمواد التعليمية التي نستنتجها مباشرةً من العناصر التي تؤسس الرجاء، والتي رأيناها للتوّ، وهي تقع في الوسط إذ تسبق المقترحات التربوية الخاصّة.

هناك طريقة تربوية تتوافق في جوهرها مع كل عنصر مؤسِّس للرجاء. سنتبع نفس الترتيب الذي به قدّمنا تلك العناصر الخمسة.

الثقة في الحقيقة

هي الطريقة التي تتوافق مع موضوع الرجاء، والمفروض أن تعلّم الشاب الرجاء، بأن يضع نفسه في ظروف ملائمة ينفتح فيها على الحياة وعلى مستقبله بموقفٍ يتّسمُ بالرجاء. لذلك، من الضروري إعطاء الثقة للشاب، وهو بأمسّ الحاجة إليها: الثقة بأن الحقيقة موجودة، ليس فحسب، بل يمكن الاقتراب منها أيضًا، لأنها طيبة وصديقة للإنسان، تسمح له بأن يشعر بها،

يلمسها، يراها... ترسل له رسائل، يمكنه أن يحصل عليها، تحبّ أن تكشف عن نفسها وتدخل في علاقة مع من يبحث عنها. بعيدًا عن هذه الثقة، لا يمكن لأحد أن يتلقن الرجاء ولا أن يرجو في الواقع.

إذا كان الرجاء يعني الحلم بشيءٍ مهم لهويتنا الشخصية، ويولد من الرغبة في أن نكون ذاتنا في حقيقتها، فليس من الممكن الرجاء إذا كانت هذه الحقيقة غير موجودة أو لا يمكن الوصول إليها في الواقع.

ربما، وقد يبدو كلامنا متناقضًا هنا، يصبح التأكدُ من وجود هذه الحقيقة، ووضعُ أنفسنا في مسيرة التعرّف عليها، أكثر أهميةٍ من محتوى الحقيقة ذاته.

روحانية الخروج

إذًا، من يرجو لا يعبّر فقط عن ثقته بنفسه، ولكنه مستعد أيضًا أن يراهن على نفسه. وبالنتيجة يتطلّب الأمر إعداد طريقةٍ تربوية تهدف تقوية تقديره لذاته، إلى درجة أن يتجرأ الشخص فيترك ضماناته ويميل إلى تحقيقٍ غير مسبق لذاته، فلا يرضى بأن يعيد ذاته، بل يوجّه نظره

نحو ما لم يحققه إلى الآن من ذاته، فينتبه لشيء يجذبه ويفتنه.

نستطيع القول إن الطريقة التربوية لزرع الرجاء في الشاب تكمنُ في روحانية الخروج أو الحجّ. إذ تحثّ الشاب على الخروج من ذاته ليجد ذاته، لأن الشاب يتعلّم أن يرجو عندما ينفصل فقط عن ذاته (عن الأنا الحالي) ليتصل بهويته الحقيقية (الأنا المثالي). بهذا المعنى من الصحيح جدًا ما يذكّرنا به آندريه جيد (André Gide*): "لا يمكن اكتشاف أفقٍ جديدة إذا لم نقبل أن يغفل نظرنا عن الشاطئ لفترةٍ طويلة جدًا"[٩].

هذا يعني تعليم الشاب على شجاعة قبول عدم الرجوع، أي لحظة الفصل عن ماضي معيّن مع ما يحمله من أفكار يألفها...، إنها لحظة صعبة ولكن لا غنى عنها، وبدونها لن تتمّ أيّ رحلة، ولا حتّى في الخيال، ولن يتلقن أيّ إنسان أبدًا الرجاء.

---

* (١٨٦٩-١٩٥١)، كاتب فرنسي حائز على جائزة نوبل للأدب عام ١٩٤٧ (المترجم).

[٩] أو "إذا كان العقل متعوّدًا جدًا على اعتبار كل ما يحيط به أنه ثابت" (ج. بريسبركر) (G. Pressburger).

يتطلب الرجاء القيام بهذه الرحلة الداخلية التي تشبه الموت عن الذات وعن الصورة التي صنعها كلّ واحد عن نفسه وعن الأقنعة التي لبسها أمام الآخرين.

القيامة كأساس

يبدأ الرجاء عندما يجد المرء نقطة مرجع قوية يسند عليها رجاءه، أو تسمح له القيام برحلة نحو المستقبل. من وجهة النظر هذه، لا يملك أحدٌ أساسًا ثابتًا وقويًا مثل المسيحي المؤمن بالمسيح، الذي بموته وقيامته غلب كلّ يأس وفتح الطريق أمام الرجاء، حتّى أمام رجاء التغلّب على الموت والعيش إلى الأبد. من يستطيع أن يزيد على هذا الرجاء؟!

سيكون من الضروري تأسيس طريقة تربوية مبنية على أساس القيامة، وفيها يضع جذورَه كلُّ انتظار وانفتاح على المستقبل. فتزيد ثقة المؤمن دائمًا بنقطة ارتكازه ("لأني عالمٌ على من اتكلت (بمن آمنت)" ٢ طيم ١٢/١)، بعيدًا عن كل غرورٍ أناني.

عكسُ الرجاء ليس هو اليأس، بل تأكيدُ الذات ووضعها في مركز الحياة.

تمرين على القدرة في الرغبة

الحاسّة "الأساسية" للرجاء هي القدرة على الرغبة، وهذه القدرة موقفٌ طبيعي في الإنسان، ولكن لابدّ، من جهةٍ أخرى، أن يتعلمها، أي يتعلّم الرغبة لما يستحق أن يُرغب فيه وأن يرغبه بعمق.

الرغبة، بمعناها الإيجابي، هي تركيز الطاقة الشخصية على موضوع يُعتبر مهمًا أو مركزيًا لهوية المرء الشخصية، وتحقيقها يتطلب جهدًا شخصيًا ومساحة من الانتظار، ومقاومة تجربة الاكتفاء بشيء ذي قيمة أقلّ منه. يوضع الرجاء على هذا الخطّ، أو يمثّل على المستوى الروحي ما تعنيه الرغبات على المستوى النفسي.

من المهم ملاحظة أن وقت انتظار تحقيق الرغبات، هو وقت تربوي وثمين في الوقت ذاته، ففيه تحدث ظاهرتان مهمتان جدًا: تطهير وتقوية الرغبات ذاتها. من جهة، هو وقت "الاستراحة"، (كما يسمّيه كودن[10]) الذي يطهّر الرغبة أو يجبر الشخص على التساؤل عن نوعية رغباته، أو يسأل ذاته ما هي رغبته في الواقع، وما نوع

[10] Cfr. A. Goden, *Psicologia delle esperienze religiose. Il desiderio e la realtà*, Queriniana, Brescia 1983, pp. 181-193.

الانتظار الذي في أساس توتر رغبته. ومن جهةٍ أخرى، يزيد هذا الوقت انتظار الرغبة أكثر، فيقويها ويجعلها أكثر مرغوبة ويجعل الشعور بنقص وجودها أقوى. وربما لهذا السبب، لا يحقق الله بصورة مباشرة طلباتنا، وخاصّة ما ننتظره منه بأن نرى وجهه[١١].

بينما على العكس، خبرة الطفولة التي تتّسم بإشباع الأهل لرغبة الطفل بصورة منتظمة، تنتهي بـــ"سلب" قدرة الطفل نفسه على الرغبة والرجاء. وهي أفضل طريقة في عدم التعليم!

تكامل الخبرات المعاشة

أكدّنا بأن للرجاء مشتركات كثيرة مع النظرة التفاؤلية تجاه الواقع.

ليس هذا الموقف شيئًا غريزيًا، مجرّد سمة موروثة، بل أيضًا ثمار اهتمام تربوي، على الأقل في جزء منه. وعلى الخصوص هو ثمر عمل صبور على كلّ مربّي أن يقوم به مع الشاب: يجمع الخبرات المعاشة في تاريخ

[١١] "الرغبة الحقيقية"، يقول ليفانس (Lévinas) "هي تلك التي لا يحققها المرغوب به بل يجعلها أكثر عمقًا".

الشاب الشخصي ليكتشف فيها علامات حبّ الله. عندما يقوم الشاب بهذه العملية، بدقّة كبيرة وبتفصيل تاريخي، لا يستطيع إلا أن ينظر لمستقبله برجاءٍ صافٍ. وفي الحقيقة، يضع ماضيه بين يدي حقيقة تواسيه: الله أب وأم، كان موجودًا في الحياة التي عاشها، وبالتالي سيبقى معه إلى الأبد!

أكّدنا أعلاه أن الرجاء ليس تنبؤًا ولا حسابًا، بل هو ثقة ينقلها الماضي بأن الله سيستمر أبًا وأمًا لي في المستقبل. كما نقول: الرجاء يمتدّ طبيعيًا نحو المستقبل، ولكنه يولد في الماضي.

وهذا سيؤدي إلى مصالحة حقيقية مع تاريخي الشخصي.

ديناميكة الرجاء النفسية

سنحاول الآن أن نرى بعض العناصر حول تكوين وديناميكة الرجاء، وخصوصًا تلك المتعلقة مع الجانب التربوي الذي يهمّنا الآن.

من الإيمان إلى الرجاء، من الرجاء إلى الإيمان

ليس الرجاء فعلاً يحمل جذوره في ذاته، ولا يولّد ذاته، بل يولدُ من مكانٍ آخر، من القناعات الأساسية للشخص، من إيمانه، من أي نوعٍ كان. أو ببساطة أكثر، من نمط حياة الشخص، وفي النهاية يرجو الشخص بناءً على كيفية عيشه لحياته.

بالنتيجة، قد لا يرجو الإنسان شيئًا، وبدلاً من الرجاء يملأ قلبه وعقله من التوتر والقلق الزائد، من الهموم والمخاوف حول المستقبل، أو يرجو قليلاً أو بطريقة تافهة وسطحية، أو مكررة وبلا لون، أو يرجو ما يرجوه الجميع أو ضمن أفقٍ تافهة جدًا، أو على أساس منطق

بشري يتناسب مع نفسه فقط، مع قواه الذاتية أو ممتلكاته الشخصية...

يولد الرجاء الحقيقي من قناعة قوية، جريئة، من قناعة العقل والقلب والإرادة: يمكن أن ينبع من الإيمان، ولكنه لا يتوقف عنده، بل يدفعه إلى أكثر بكثير. فالرجاء لا يعني فقط الثقة التي يعيشها المؤمن، بل تعني اتّخاذ موقف نحوها، فيعطيها ملامح شخصية وأصلية، فيتساوى معها إلى درجة القيام باختيارات نابعة منها.

هكذا، إذا آمنتُ في الحياة الأبدية، على سبيل المثال، فإني أرجو بها عندما أقوم باختيار نمط حياة (دعوة) يعبّر واقعيًا عن اختيار مجالٍ يتوافق معه، وفي هذا الاختيار لا تكتسب الأمور الأرضية (شهرتي، رفاهيتي النفسية أو المادية، نجاحي، الخ) أهمية كبيرة وحاسمة لهويتي ولسعادتي.

بكلماتٍ أخرى، الإيمان هو الثقة بإمكانية صعود جبل الحياة، وهو العدّة اللازمة لصعود هذا الجبل العالي، بينما الرجاء هو الثقة التي تولّد الشجاعة لصعود الجبل بفعّالية حتّى القمة، على الرغم من الصعوبات الموضوعية، وهو شجاعة أقوى من الخوف من فشل الصعود. وقوة

الصعود تتجاوز الإيمان النظري ولكنها تنطلق دائمًا من قوة فعل الإيمان.

الرجاء هو الإيمان الذي يصبح شخصيًا وفعّالاً، بل هو خيال الإيمان، إيمان مرتبط بالمستقبل ويمتد إلى الأمام، إنه التفاؤل الناتج عنه، ولكنه بصورة خاصّة إيمان واثق من نفسه أكثر، لأن أساسه وجذوره واضحة أكثر.

جنون الرجاء

لهذا فالرجاء، كما سبق وذكرنا، فيه شيء من عدم المنطق، شيء مجنون تقريبًا، أو – بالعلاقة مع الإيمان – فيه جانب غير منطقي، غير عقلاني، أو من الأفضل القول إنه فوق العقلاني نسبةً إلى العقل والمنطق الإنساني البسيط. ولهذا السبب أيضًا فالرجاء، اليوم على الخصوص، تمرّد على سطحية اللحظة الحاضرة. نستطيع القول إنه حرب عصابات ومقاومة ضدّ سلطة آيديولوجية تدّعي التشاؤمية أكثر من الفرح.

بهذا المعنى كان آباؤنا في الإيمان يرجون ضدّ أي أمل (راجع روما ١٨/٤)، ولكن بعض الشهود المعاصرين، مثل الطوباوي شارل دي فوكو الذي ذكرناه

أعلاه، "مجنون" في رجائه في إعلان المسيح بين المسلمين، ويتنبأ في الوقت ذاته بمشكلة، أصبحت شيئًا فشيئًا أساسية اليوم، وبطريقة مسيحية أصيلة لمواجهتها[١٢]، أو الأخ روجيه* الذي كان يقول عن مشروع تيزيه: "من نحنُ؟ جماعة ضعيفة تستند على رجاء مجنون: مصالحة المسيحيين وجميع البشر".

هكذا بالنسبة لكل شاب مدعو: استقبال كلمة سرّية ككلمة الله يعني الرجاء بشيء مجنون. وفي الدعوة

---

[١٢] "ها قد انقضت ١١ عامًا ونصف العام وأنا هنا، الفرنسي الوحيد، المسيحي الوحيد، في صومعة تقع على بعد ٤٠٠ أو ٥٠٠ متر عن تجمع الطوارق، وتحيط بها بعض الحقول... كيف أقضي الوقت؟ في الصلاة للإله الطيب، في خلق علاقات، في تطوير القريبين مني ماديًا وفكريًا، في كتابة قواميس وقواعد ونصوص من لغة الطوارق... تسمح للفرنسيين، مرسلين وجنود، مدنيين وعلمانيين، الحفاظ على علاقات سهلة مع هذه الشعوب... لا أقوم بأيّ حديث، ولا موعظة، ولا مدرسة، ولا أتكلم غير لك ومن أجلك، أنصحك أنت ولأجلك، أعطي لكل أحد قدر ما أعتقد أنها قابليته، والبعض لا أنصحه أبدًا بل أفرح بأن أعطيه مساعدة، ليست هي بذرة الإنجيل بل فعل حراثة يعدّ الأرض للبذرة. تمرّ أيامي بسرعة، وأنا سعيد جدًا..."

(C. de Foucauld all'amico Luis-Joseph del Balthasar, 7/III/1916, in *Notizie delle Fraternità* [Piccole sorelle di Gesù], suppl. al n. 13 [2005] 60).

* روجيه لويس شوتز المعروف بالأخ روجيه، راهب سويسري مؤسس جماعة رهبانية مسكونية في تيزيه، شرقي فرنسا (المترجم).

الحقيقية هناك دائمًا شيءٌ من الجنون: جنون الرجاء بشيء أكبر من ذاته.

الرجاء واليأس

ليس هذا فحسب، بل بهذا المعنى يمكن القول إنه لا توجد معارضة مطلقة بين الرجاء واليأس، لا بل أن الرجاء يولد في اللحظة الحاسمة التي فيها قد يولد اليأس أيضًا، وقد يصبح اليأس مرحلة في المسيرة نحو الرجاء.

من المهم في هذا الصدد ذكر حادثة بطرس على البحر (راجع متى ١٤/٢٨-٣٣). طالما كان بطرس يحدّق صوب يسوع، يؤمن به ولا يعتمد على ذاته ولا يتّكل على امكانياته... كان يمشي على الماء، فإيمانه يقوّي رجاءه مباشرةً، دون تدخلٍ خارجي، والرجاء ذاته يحقق الإيمان من خلال القوة التي تنبثق من المسيح. ولكن بعد ذلك، عندما تقلّ ثقته، يطفو على السطح ضميره الإنساني مع كل مخاوفه ومشاعره ومحدوديته وخوفه من الثقة بالآخر، مع الحذر وكل ما يتعلق بالسياسة الواقعية التي يتبعها الفرد، فيستسلم للقوى البشرية. ثم يسمع صوت العاصفة وأصوات الأمواج...

فيقلّ الرجاء: بطرس لا يضع نظره في عيون المعلم، ولذلك ينظر بقلق إلى البحر الذي أوشك أن يبتلعه.

ولكن، في وقت المصيبة والخوف، في وقت الإيمان الضعيف والأمين في الوقت ذاته، يعلو صراخ ذلك الذي عليه أن يثبّت إيمان إخوته: "يا ربّ، نجّني!".

يعلّق انتزو بيانكي (Enzo Bianchi):

الإيمان، وإن كان صغيرًا، حتّى الحدّ الأدنى المعقول منه، وإن صغر إلى حجم حبّة خردل، يحوي دومًا في داخله قوةً هائلة...

أين وكيف تظهر هذه القوة الهائلة؟ في الرجاء الذي هو، من وجهة النظر هذه، تعبيرٌ عن قوّة الإيمان. فبطرس وضع رجاءه كلّه في هذه اللحظة في يسوع، وينتظر منه فقط الخلاص في هذا المنعطف المثير. ويؤكد الكاتب ذاته:

ليست الصورة الحقيقية للمؤمن تلك التي يرسمها بطرس وهو يمشي على الماء نحو يسوع، بل تلك

الصورة التي فيها يوشك بطرس أن يغرق وهو يصرخ إلى الربّ: "نجّني"، والربّ ينتشله[١٣].

ولكن على ضوء حدث الإنجيل هذا، هناك مسيرتان لولادة أو نمو الرجاء المسيحي.

– الأول هو الطبيعي أكثر، عندما لا يواجه الإيمان صعوباتٍ معيّنة لأن الربّ يبدو وكأنّه يجيب على انتظارات الإنسان، والحياة تسير بحسب منطق معين ("ديني" أيضًا)، ليؤكد بأننا مخلوقون على صورة الله. وكأن الله يسمح لنا بالسير على الماء، وإن كنّا قد لا نعير اهتمامًا لعظمة الهبة التي يصنعها لنا، وفي كل الأحوال لا يُطلب منّا، هكذا يبدو لنا على الأقل، أن نتّخذ موقفًا أو أن نقوم بخياراتٍ حاسمة ومتطلبة جدًا تجاه إيماننا ذاته. في هذه اللحظات ليس الإيمان صعبًا، ولا حتّى الرجاء، ولكن ربما لن يكون الرجاء في تلك الفترات أمرًا عظيمًا أو لن نرجو كثيرًا في اللحظات التي تسير فيها الأمور حسنًا ونشعر فيها بالإشباع.

– الثاني نراه متمثلاً في بطرس الذي يغرق تدريجيًا، لأن إيمانه بالمعلّم بدأ يقلّ. في بطرس الذي يأس أمام

---

13 E. Bianchi, *L'incredulità del credente*, in *La Rivista del clero italiano* 2 (1993) 114-117.

إدراكه لنهايته. وهذا هو التناقض: من اليأس يمكن أن يأتي الرجاء، أي أن الرجاء يولد في اللحظة ذاتها التي قد يولد فيها اليأس، كما أن الرجاء المسيحي لا يكون قويًا إلاّ عندما يعبر من خلال ظلام اليأس، لأن الربّ يصبح عندها الخلاص والرجاء الوحيد، مثلما يفترض الإيمان ويتحمل ظلام الشكّ. وهذه نقطة أساسية للنمو التربوي.

الرجاء والدعوة

كما رأينا، هناك علاقة واضحة جدًا بين الرجاء والدعوة. فالدعوة قابلة للتحقيق، وترسم مستقبل شخصٍ ما وتعطيه شكله النهائي، بالتالي فالدعوة تُعاش بصورة حتمية مع رجاء أو خوف. غالبًا ما يكون هذا الموقف الأولي، المتّسم بالرجاء أو لا، هو القرار الأول لاختيارٍ ما. فأزمة الدعوة هي أزمة رجاء، مع تأثير متبادل بين الأزمتين. وهذا مقلق، لأنّه من الواضح أن الرجاء قليل اليوم، وخاصّةً على مستوى الشباب.

ولكن يمكن ملاحظة العلاقة بين الرجاء والدعوة، من خلال معرفة كيف يعيش المدعو الرجاءَ في الواقع، من وجهات نظر عدّة من حياته كمدعو.

المدعو من الربّ مدعوٌ أيضًا أن يرجو، أي أن يترك حياته في يديّ الآب، فلا يقلق كثيرًا على نفسه وعلى صورته ونتائج أعماله ومهنته وطموحه... على ما سيأكل وما سيلبس. فرجاءُ المدعو هو التخلّي الكلّي، تسليم جذري للذات، ثقة كاملة في ذلك الذي وعد بمئة ضعف في هذه الحياة (راجع مرقس ١٠/٣٠). يعيش المدعو حياته بناءً على هذا الوعد، يؤمن بخسارة ويراهن بأن يلقى يوميًا المئة ضعف التي وعد بها يسوع، له أعين ليكتشفها وقلب ليتذوقها.

هو يؤمن لدرجة أنه لا يقلق حتّى تجاه تحقيق ذاته بصورة فعّالة، لأنه واثق أن فراغه الفعّال سيملأه الله. هذا الرجاء الأكيد هو مثل الوقوع في الحبّ أو يقود في اتجاه هذا الوقوع، لأنه علامة حبّ، وإرادة للحبّ وحرية الحبّ. من جهةٍ أخرى، عشق الله شيء يمكن أن يُعاش على هذه الأرض بالرجاء فقط، ليس كامتلاك نهائي ومغرور قليلاً، بل كانتظار لله الذي لم يأتي بعد، كاشتياق لحبّ عظيم، كندم لأن الإنسان خانه في بعض الأحيان، كتوتر لا يهدأ أبدًا، كثقة تحقق تلك الرغبة التي يحملها في قلبه، التي بها يؤمن بقوة، مثل الرجاء.

هكذا نستطيع أن نذكر صورًا أخرى من مدعوين من منظور الإيمان. الشهيد، على سبيل المثال، يرجو أن يمنحه الله الحياة بالملأ وأن يكون دمُه بذارًا خصبة. المتصوف المتأمل يرجو أن يرى، بفضل النعمة، وجه الله الذي يرى منه الآن بعض الملامح فقط. الرسول يرجو أن يكون ضعفه أو فشله تعبيرًا عن النعمة. المبشّر بالإنجيل يرجو أن تصبح الكلمة التي يعلنها انتظارًا، بعيدًا عن المظاهر، وتجد لها مكانًا في قلب من يسمعها... فمن دون رجاء لا توجد حياة ولا دعوة مسيحية!

بعض الطرق التربوية

سنرى في الختام بعض الأساليب التربوية التي تعلّم الرجاء، وخاصّة رجاء الدعوة. إذا بدا الرجاءُ مقيدًا، كما قد يصفه كلّ واحد منّا، فهو يتحرر في حضارة اليوم وخاصّة في شباب اليوم. في الثقة بأن "... زمننا هذا يشتاق كثيرًا إلى الرجاء، حتّى في أخطار التحولات الثقافية السريعة، وبصورة خاصّة الفردانية المنحرفة، ورفض العقل لقوّة الحقيقة وتشويش الحسّ الأخلاقي"[١٤].

المربّي، إنسان رجاء

هناك شرطٌ أساسي لا يمكن تجاوزه أبدًا: من الضروري أن يكون المربّي، قبل كلّ شيء، إنسانَ رجاء، لكي يستطيع عيش الرجاء مع الشباب، ويتبنّى نمط حياة يتوافق مع الرجاء في عملية التعليم. "تحدّي الرجاء يحثّ الحبّ في التعليم دومًا"[١٥]. من المهم إذًا أن يؤمن المربّي بالشباب بصدق. وبعيدًا عن بلاغة الكلام، سيكون من

[14] CEI, *Testimoni di Gesù Risorto, speranza del mondo* 13, Paoline Editoriale Libri, Roma 2005.
[15] M. pacucci, *Dizionario*, voce "sperare", p. 666.

النفاق أن يدعو المربّي الشباب "رجاء الغد" وهو لا يبذل شخصيًا أقلّ جهد لأجل هذا الجيل.

ربما لهذا السبب يُطلب منّا اليوم الاهتداء، لنفهم الشباب ونقيمهم ونثمنهم ونستوعبهم... غالبًا ما نحمل نحن البالغون (ونحن الكهنة بصورة خاصّة) أفكارًا مسبقة عن شباب اليوم، وعندما نتكلم عنهم نلجأ إلى أساليب سلبية وتشاؤمية، من نوع: "هذا جيل ضائع، ليس كما في السابق، كما في زمني، فقد انتهى جيل الأسخياء والشجعان...".

يمكننا أن نتخيّل بسهولة كم هذا الأسلوب مضرّ وقاتل في العمل الراعوي مع الشباب والدعوات. إذا انطلقتُ في عملي من مفهوم سلبي عن شباب اليوم، أو من قناعة بأن الشباب لا يهتمون بموضوع الدعوة، فمن المؤكد أني لن أستطيع أن أنشّط الدعوات، أو سأقوم بذلك عن عدم قناعة، ولن أكون صادقًا أو مقنعًا. ولكن ليس دائمًا بسببهم، بل بسبب فراغ الرجاء أيضًا، لأن العامل في حقل الراعويات، الكاهن أو المكرّس والمكرّسة، أقلّ قدرة اليوم على التربية مقارنةً مع الماضي، أو إنه أقلّ شعورًا بجوهر دعوة مربّي الشباب.

بينما من يريد طرقًا تربوية لتحرير الرجاء في الشباب، عليه قبل كل شيء:

... أن يؤمن بالشباب، أي يقدّرهم، يحبّهم بصدق، يتكيف مع خطواتهم، ولكنه يسبقهم قليلاً لكي يحثّهم على السير. لا يسمح لنفسه أن يُصاب بمرض التشبّه بهم بأي ثمن، بل يجعلهم بالأحرى ينجذبون لما هو حقيقي وجميل، ويحاول تعليمهم معنى أبعد من التناقضات الغريبة التي يعيشونها، بل يحثّ رغباتهم الفقيرة أو المعتدلة أيضًا، لينعشوا البحث عن الأصالة التي تسكن في داخلهم العميق، وإن كانوا لم يدركونها بعد...

إذا آمن أحدٌ قليلاً بهذه الرسالة وبعالم الشباب، أترجاه فليتركها ولا يقوم بدور المنشّط، لأنه سيكون مدمّرًا للدعوات[١٦].

على العكس، "الكاهن القادر على زرع الرجاء نعمةٌ للجماعة"، وهو أيضًا مربّي ومنشّط حقيقي[١٧].

---

[16] A. Cencini, *Vangelo giovane 2. Compendio di animazione giovanile e vocazionale*, Rogate, Roma 2005, pp. 49-50.

[17] S. Pagani, *Tra Gesù e la gente. Il prete, uomo per questo tempo*, Vita e Pensiero, Milano 2005, p. 22.

الرجاء يعني تقدير الآخر

كل ما قلناه مهم، ليس على المستوى العام فحسب، بل خاصّةً على مستوى العلاقة مع الفرد الذي غالبًا ما يسجنه المربّي في منهاج صارم ومغلق، فيشعر ذاته "مجبرًا" لأنه يعتمد على المربّي نفسه، فيؤكد بذلك أن المربّي هو من يصنع نضوج الشاب، وهذا ما سيقيّد الرجاء.

يشرح علم نفس الإدراك كيف أن الفكرة التي كونتها عن الآخر تدفعه حتمًا للسلوك بطريقة تشابه وتؤكد هذه الفكرة التي أحملها عنه[18]. فإذا أردتُ أن يتغير الآخر، عليّ أن أُبدي استعدادًا لأغيّر الفكرة التي أحملها عنه، وأدرك أنه محبوب بصورة موضوعية وأن هذا الحبّ حاضرٌ في عمق أناه بعيدًا عن أي سلوك سيء أو أي ضعف وخطيئة. في أساس كل تغيير ونمو إنساني هناك فكرة قويّة.

لهذا السبب "الرجاءُ ضروري لأنه، قبل كل شيء، يعطي الثقة للشباب، ويثق بأنهم قادرون على مواصلة عمل الخير على الرغم من كل الظروف الداخلية

[18] Cfr. A. Cencini – A. Manenti, *Psicologia e formazione. Strutture e dinamismi*, EDB, Bologna 2002, pp. 176-180.

والخارجية الكثيرة – وكم هو مهم موقف الثقة هذا عندما يحتاج الشاب أن يستأنف المسيرة باندفاع بعد خطأ أو فشل! – ولأن الثقة تمنح المربين حماسًا ونشاطًا في العمل يسمان طريقتهم في الحياة والسلوك"[١٩].

الرجاء يعني أن نؤمن بالآخر ونرسل له رسائل ليكون أكثر قربًا من الصورة المثالية التي يحملها في داخله في كل الظروف. "ينمو كلّ واحد إذا حلم أحدٌ به"، يقول الشاعر دانيلو دولتشي (Danilo Dolci)[٢٠].

يسوع في لقائه بالزانية هو المثال الواقعي لهذه المحبة، على الرغم من التجاوزات والأحكام المسبقة عليها من المجتمع (راجع يوحنا ٨/١-١١). في هذا الصدد، هناك مثالٌ آخر مهم في أيامنا، وهو موقف البابا يوحنا بولس الثاني مع الشباب: في أزمنة لم يقدّر فيها أحدٌ هذا الجيل من الشباب، ابتكر قداسته اليوم العالمي للشبيبة، ونجح في تثبيت علاقة ثقة وطيدة مع الشباب وبنتائج باتت معروفة اليوم.

ولكن، وقد يتناقض كلامنا هنا، حقيقة أن "الآخر هو كما أدركه أنا" صحيحة نوعًا ما. إذا كان الرجاء يعني

---

[19] M. Pacucci, *Dizionario*, p. 666.

[20] Citato in F. Scaparro , *Dieci sogni per un futuro possibile*, in *Avvenire* 31/XII/2005, 29.

خبرة تقبّل ذاتي بثقة، فمن الضروري – خاصّةً لبعض الشباب الذين لم يختبروا بكفاية هذه الثقة – أن يعيشوا علاقة تقبّل عميق وغير مشروط مع المربّي.

"أيها الشاب، مَن انتزع منك الرجاء؟"

نشير إلى نقطة أساسية في هذه المسيرة التربوية نحو الرجاء، وهي إدراك قلّة الرجاء من حولنا اليوم (وبصورة خاصّة في قلب الشباب) وخاصّةً من خلال الطرق المنحرفة التي تقود إلى فقدان الرجاء، عن طريق المعلمين السيئين، والمعروفين بهذه السمعة، أو المتخفين أو المتسترين.

من المهم حثّ شبابنا ليفتحوا عيونهم ويدركوا مَن ينتزع منهم جمال الحياة، مَن يجرّهم شيئًا فشيئًا إلى اليأس الذي يبدو أنيقًا ومنطقيًا أحيانًا ولكنه متشائم بغرور، وكأنه كبرياء يلفّه موقف اللامبالاة والاكتفاء والتكبّر تجاه من لا يزال يتوهم بأنه يرجو...

إنه جنون ثقافة العالم الحالية، فهي ليست مغامرة أو عازمة على الدفاع عن موقف أو على امتلاك أتباع لها، لكنها ببساطة غير مبالية، باردة، مخيبة للأمل، فاترة

بحزن من دون إثارة أو تشوّق، بل تافهة أمام من لا زال يؤمن أن هناك حقيقة ويحلم باكتشافها. المثال الأخلاقي الأعلى لهذه الحضارة الزائفة هو البرود أمام الشيء أو الحدث، اللامبالاة أمام الحياة والموت، رفض الماضي والميل للنسيان، عدم مشاركة الآخر والتاريخ، أخذ مسافة واحدة أمام بدائل الحياة فلا تختار شيئًا منها لتوهم ذاتها بأنها تتحاشى المأساة[21]، مثل الحيادية التي تدّعي الحداثة والتحرر، وهي في الواقع تعبّر فقط عن تشوش العقل الذي يقود إلى عطالة القلب وموت كل عاطفة ورغبة وعلاقة وكل رجاء.

"الحكيم لا يبكي ولا يضحك"، هكذا كان يقول سبينوزا*، وهو عكس ما يؤكده القديس أوغسطينوس بالضبط: "مَن يؤمن بالله... يبكي ويضحك"[22].

هذا الجو الثقافي، الرواقي – العدمي – المتطرف، أو ثقافة ما بعد المسيحية – ما بعد عصر الإنارة – ما بعد الماركسية، تسبب ضررًا كبيرًا في عقل وقلب شباب اليوم، ونستطيع القول إنها تقتل الرجاء الذي يبدو وكأنه قد اختفى في لغة الشباب العامّية. وكما أن هناك أنواعًا

---

[21] Cfr. CEI, *Testimoni 8*.

* فيلسوف هولندي من أهم فلاسفة القرن السابع عشر (المترجم).

[22] Agostino, *Esposizione sul Salmo 93,2*.

حيّة تتقرض، هناك أيضًا نوعٌ من "الشباب" مهدد بالزوال!

لابدّ من القول بصوتٍ عال: "انتبه، أيها الشاب، ممن ينتزع منك الرجاء... انتبه لأنه إذا نجح فسيسرق منك الحياة وطعم العيش، وسيجعل وجودك بلا لون، سيقتلك بموت بطيء وغير مؤلم... انتبه لأن هذه الثقافة تنتشر وتخترق في كل مكان، مثل فيروس خبيث، وربما من هؤلاء المعلمين الوهميين القريبين منك الذين ينشرون الخبر السيء ويبشّرون باليأس كأسلوب حياة عادي. ولكنك قد تجدهم أيضًا في المعلم، في الصديق، في النادي، في الحاسوب، في الرسالة القصيرة، في المغني وفي البرنامج التلفزيوني الأبله، في جيرانك، في رئيسك، في زميلك في العمل، وحتّى في عائلتك أو حتّى في مربّيك وفي كاهن رعيتك...

بالتأكيد حتّى في الكاهن، وذلك عندما لا يكون سعيدًا في حياته ولا يعيش دعوته بحماسٍ وإبداع، عندما يستمتع فقط بوجوده في مركز الاهتمام، ويدخل في أزمة عندما لا يجد أحدًا، حسب قوله، يعتبره أو يقدّره. عندما لا يثق بالناس من بعد (وربما حتّى بالنعمة)، يحدد أوقاتًا للمصيبة فيردد: ("كيف ستنتهي هذه المرحلة؟")، عندما

يعيش لذاته فقط وينغلق عليها، يقوم ببعض الطقوس الليترجية الفخمة دون حسّ حي ونابض للسرّ الذي يعلن بالرجاء عن "سماءٍ جديدة وأرض جديدة"، عندما يفقد شجاعة النبؤة ويصبح رجل المراهنات، يتّكل على الدعم البشري، ويبحث قبل كلّ شيء عن الرفاهية والحياة المريحة، عندما يكون حذرًا بزيادة، يهاب المخاطرة ويدع الخوف من محدوديته وفشله يسيطر عليه. عندما توجد على فمه دائمًا تلك الكلمة التي ترعب المؤمن: "كان زمان"، وهي تبدو وكأنها تجديف، يعتقد أنه فعَلَ كل ما هو ممكن ومستحيل، وأن الرعية تعمل بطريقة طبيعية جدًا، لكن كلمة الله قليلة الذكر في الرعية، والراعي لا يملك وجهة نظر بل لا يدرك حتّى ما يحدث حوله في الواقع، وما يحدث للتسعة والتسعين خروفًا الذين هربوا وبقي منهم واحد...".

لا أريد أن أكون متشائمًا، وليس هذا هدفي من الكلام، بل أريد أن أشير بطريقة استفزازية إلى احتمال مرعب، ولكنه واقعي في الوقت ذاته، أن نصبح حتّى نحن صدىً لثقافة اليأس هذه. على العكس، أريد أن نشير إلى فعّالية الطريقة التربوية في تحرير الرجاء، ودعوة شبابنا اليوم ليفتحوا أعينهم ويوجّهوا عقولهم ليتعرّفوا على ما حولهم

من أنبياء المصيبة العديدين الذين يريدون أن يقيّدوا رجاءهم وأحلامهم.

هناك شيءٌ أكيد: لا يستطيع الشاب ألاّ يتأثر أمام هذا الاحتمال، بل يتمرّد في داخله أمام انتزاع الآخرين لحرية بناء مستقبله.

مسيرة الإيمان في يسوع القائم ونموّ الرجاء

إذا كان الرجاء يأتي من الإيمان، فالرجاء ينمو بمقدار ما ينضج في الإيمان، وبمقدار توافقه مع مشروع الله. لذلك، على الحياة المسيحية العادية أن تكون مسيرة نضوج في الإيمان، ولهذا السبب فهي مسيرة نضوج في الرجاء أيضًا.

لذلك، على بُعد الرجاء المتأسس في الإيمان بالقيامة أن يكون واضحًا في الاحتفالات، في الليترجيا، في التعليم المسيحي، في الشهادة، الخ، ليؤكد أن الإيمان الذي لا يرجو ليس إيمانًا مسيحيًا، بل مجرّد آيدولوجيا قابلة للاستهلاك، مثلما أن الرجاء الذي لا يؤمن أو لا يؤمن بكفاية، ليس رجاءً مسيحيًا بل ضعيفًا لأنه غير مؤسس على موت وقيامة المسيح، ويصبح في النهاية مشابهًا

لتنبؤات الطقس، أو على مستوى أدنى بكثير، كأنه توقعات عرّاف.

في هذا الصدد كانت مهمة، قبل عقود من الزمن، صرخة القلب التي أطلقها الصحافي والمؤمن اكاتولي (Accattoli): "الكنيسة، رجال الكنيسة، قولوا لنا وأعلنوا أكثر وبنشاطٍ أكبر أن المسيح قام من الموت، ونحن مدعوون أن نقوم معه!"[٢٣]. ربما لا زالت هذه الصرخة فعّالة اليوم.

المسيحي هو "راوي الرجاء"[٢٤]، هو من يشعر بحاجة ماسّة لأن يعطي سببًا للرجاء الذي فيه ويدرك أنه ليس من عنده (راجع ١بط ٣/١٥)، بل من عند يسوع القائم بل هو يسوع القائم، رجاء العالم "في هذا الواقع المدهش والمأسوي الزماني والدنيوي"[٢٥]، وهو ينمو في الإيمان بقدر ما يروي هذا الرجاء ويثبته في الآخرين. لذلك عليه أن يدرك أن المسيحي وحده يستطيع أن يعطي رسالة رجاء للإنسانية، وفقط المؤمن بالمسيح القائم يستطيع القول إن الموت ليس له الكلمة الأخيرة على حياة الإنسان، يستطيع هو فقط إعلان رجاء عدم الموت، وهو

---

[23] Cfr. L. Accattoli, *La speranza di non morire*, Paoline Editoriale Libri, Milano 1988.
[24] *Ibidem*, p.31.
[25] Paolo VI, *Testamento*.

الرجاء الوحيد والحقيقي في قلب كل إنسان، الرجاء الذي يحمله الجميع في داخلهم، حتّى من ينكره أو يسخر منه.

لهذا السبب كان الرجاء واحدًا من العناصر الأكثر أهمية التي عاشتها الكنيسة الأولى بقوّة. إذ لا يمكن أبدًا اليوم الهبوط إلى مستوى أقلّ، إلى ما هو تافه، إلى الإدعّاء الواهم والمشوش بأن "الأديان جميعها متساوية"... لابدّ من خلق أو إعادة خلق راعوية الرجاء المسيحي، وهو الرجاء الإنساني الصحيح! لذلك نعيش اليوم أوقات نعمة، كما لا يكلّ عن التأكيد ماركو كوتزي (Marco Guzzi*).[٢٦]

تمييز صوت من يحب

إن حياة الإنسان صوتٌ يدعو، بل صوت من يحب. وبهذا المعنى، دعاني الله من العدم. من بين مليارات البشر، اختارني ودعاني أنا، وفضّلني على عدم الوجود. فحياتي مبنية على هذه الدعوة. وتستمر حياتي لأنه لا

* شاعر وفيلسوف إيطالي (المترجم).

[26] Cfr. tra i vari suoi testi, M. Guzzi, *Cristo e la Nuova Era*, Paoline Editoriale Libri, Milano 2000, e *Darsi pace. Un manuale di liberazione interiore*, Paoline Editoriale Libri, Milano 2005.

زال يدعوني، ولا يسمح بأن أقع مرةً أخرى في صمت العدم الذي منه انتشلني.

هذه التربية على تمييز الله كصوتٍ محبّ، أساسية في محيط ثقافي اجتماعي متّسم دومًا باليُتم، بسبب غياب الأبوين، أو لكونهما غير مهمين أو غير حاضرين أبدًا... أو كانا حاضرين بكثرة لدرجة يستحوذان أو يمتلكان فيها الابن، ولكنهما غير قادرين على "دعوته".

أن تدعو يعني أن تُشعِر الآخر (المدعو) بكرامته وأهميته، وتوكل إليه واجبًا داخل علاقة معه، أي أن تعترف بفرادته المميزة، وبإمكانيته على فعل شيء هو الوحيد القادر على القيام به. أن تضع العاطفة والتقدير معًا، وهما عنصرا الدعوة. إذا لم يدعوك أحدٌ يعني أنك لا تعني شيئًا لأحد. يبدو أن هناك اليوم آباء وأمهات (أو مربين) يستطيعون أن يجيبوا على أسئلة أبنائهم أكثر من دعوتهم، أن يستجيبوا لحاجاتهم أكثر من حثّهم على فعل شيء، لا يرفضون أن يمنحوهم ما يريدونه ولكنهم غير قادرين، بل متخوفين، أن يطلبوا منهم طلبًا صغيرًا يقدّمونه لهم بذكاء وإقناع. وفي النهاية، لا يحاولون أن يعلموهم الكرامة والإيجابية التي تقف وراء المسؤولية.

وإن كان الموضوع متعبًا ومعقدًا بسبب هذه الخبرات العائلية، فمن الضروري إستعادة المفهوم عن الله ككائن أبدي محبّ، وعن الدعوة كفعل يعبّر أكثر من كل الأفعال الأخرى عن الحبّ للشاب المدعو. وفي الواقع لابدّ للمربّي أن يحبّ الشاب بنفس أسلوب الله، ويحثّه ليعيش إيمانه بهمّة ومسؤولية، ويتّخذ على عاتقه التزامات تجاه الجماعة، ويشغّل مواهبه في سبيل نموّ الآخرين، وألاّ يبقى مغلقًا في الفردانية النرجسية الصماء لأي صوت وأي دعوة. ولا يوجد طريقة أفضل من إعداد شاب لاستقبال دعوته من الله، وتمييز الصوت الإلهي المحبّ الذي يدعوه في الواقع، أو يقوم بواجب، كبيرًا كان أم صغيرًا، بقوة كرامته كإنسان ومؤمن. أليست الدعوة "جواب كلّ صباح على نداء متجدد؟"[٢٧].

أن نقدّم هذه الخبرة في التعليم المسيحي وفي مسيرة الإيمان، الشخصي والجماعي، يعني أن نساعد المؤمن على الرجاء، أي على الثقة بأن الله الذي دعاني من العدم ولا زال يدعوني كلّ يوم من حياتي، سيواصل حبّه لي إلى الأبد، سيعتني بي ويعتبرني ثمينًا في عينيه، مثل الابن المفضّل، الكائن الوحيد والفريد الذي لا يتكرر...

---

[27] Pontificia opera per le vocazioni ecclesiastiche, *Nuove vocazioni per una nuova Europa* (NVNE) 26, Paoline Editoriali Libri, Milano 1999.

وأثق أيضًا أنني في جواب دعوته وتقبّلها سأستطيع أن أجد التحقيق الكامل لذاتي والسعادة والحرية الحقيقيتين.

الرجاء على غير رجاء*

الرجاء هو تعبير عن الثقة، ويأتي أساسًا من خبرة الشعور بأني محبوب. وهذا لا يخلق فقط الثقة بالحبّ، بل يغيّر النظرة إلى الحياة والآخر والعلاقة بالعموم، والقرارات الصغيرة والكبيرة... وهذه النظرة لن يحددها دائمًا وحصريًا العقلُ أو الإرادة الطيبة أو الصرامة المنطقية أو الحسابات الواقعية لإمكانيات المرء.

نتعلم الرجاء عندما نخرج بقوة ثقة الحبّ من الإطار العقلي البحت وندخل في إطار الثقة وتسليم الذات الذي يقود إلى الثقة ضدّ الأدلّة الواقعية. ويُقدّم هذا التعليم المسيحي في بُعد دعوة الحياة فقط، والشاب اليوم بحاجة لهذا التعليم. مع ملاحظة أننا ركّزنا في هذه السنوات على

* كما يقول بولس في رسالته إلى أهل روما (٤/١٨)، أو إنه رجاء ضدّ أيّ أمل، وهنا نستغل الفرق اللغوي الذي تستخدمه اللغة العربية بين مصطلحي "الرجاء" و"الأمل"، لنشير بالأول إلى فعل إلهي بينما نقصد بالثاني فعلاً بشريًا بحتًا. ومن منظور مسيحي، الأول لا يخيب بينما الثاني فقابل للخيبة (المترجم).

الدعوة كفعلٍ طبيعي وتلقائي، لأنها مبنية على تصور بدائي عن الحياة كنعمة مقبولة تميل بطبيعتها أن تصبح خيرًا موجّهًا للآخرين[٢٨]. ولكن صحيح أيضًا أن هذا الاستعداد "الطبيعي" لم يعد طبيعيًا كثيرًا بالنسبة للشاب اليوم وفي ثقافته المعاصرة، لذلك يجب أن تُعرض عليه الدعوة، ولابدّ من حثّها والتأكيد عليها من خلال التربية على الرجاء ضدّ أي أمل، بعيدًا عن المنطق الإنساني البحت الذي يطمئن في واقع غادر.

نستطيع أن نسمّي هذا التعليم المسيحي إنجيلَ "إلقاء الشباك على كلمتك" (لوقا ٥/٥). إنه ليس مجرّد تعليم مسيحي، لأنه يعني الحثّ على التطبيق بالأفعال، واتّخاذ قرارات بناءً على موقف الصيّاد بطرس بعد ليلة فاشلة من الصيد. إنه العبور من قلق توكيد الذات واتّخاذ الاحتياطات اللازمة، أو القيام باختيارات يدّعي صاحبها أنها أكيدة وليس فيها احتمال الفشل للوصول إلى الهدف المنشود، إلى شجاعة المغامرة في مشاريع جريئة وربما "مستحيلة"، فيها أكثر من الثقة بالقدرة الذاتية المنتصرة وهو الثقة بشخص ينزل وينتظرني ويسحبني ويجعلني أمشي نحوه، فأرمي نفسي في الفراغ راجيًا أن أقع بين يديه. كما يروي هذا الحادث:

---

[28] NVNE, 36b.

كان هناك طفل لوحده في البيت، في طابق علوي لبناية، وفجأةً احترق البيت، فصرخت الأم وهي قلقة خارج البناية وطلبت من الطفل أن يرمي بنفسه من النافذة إلى القماش المتين الذي يمسكه رجال الإطفاء. سمع الطفل مرتعبًا صوتَ أمّه ولكنه لم يستطع أن يراها من كثافة الدخان، ولم يمتلك الشجاعة ليقرر لأنه كان خائفًا أن تلتهمه النيران. إلى أن غريزة الأمومة منحت المرأة الكلمات المناسبة، فعندما قال لها الابن بيأس: "أمي، أنا لا أراكِ"، صرخت الأم: "ولكنني أراكَ...". فرمى الطفل بنفسه بعيون مغلقة واثقًا بنظرة أمّه، وكأنّ نظرتها أصبحت طيارًا منعه من الوقوع في الأرض فأنقذه... ويأتي عفويًا هنا تعليق سورين كيركغارد*: "الإيمان يعني البقاء على حافة هاوية مظلمة، وسماع صوتٍ يصرخ: ارمِ بنفسك، سآخذك بين ذراعيّ!"، ويضيف برونو فورتي تعليقًا آخر:

على حافة الهاوية هذه تراود الإنسان أسئلة مقلقة: ماذا لو كانت صخرةٌ تمزقني بدلاً من ذراع تستقبلني؟ ماذا لو وُجِدَ مع الظلمة ظلامُ العدم؟ الإيمان يعني مقاومة وتحمّل ثقل هذه الأسئلة: لا نتوقع علامات، بل

* فيلسوف مؤمن (المترجم).

نقدّم علامات حبّ للمحبوب غير المرئي الذي يدعو (الله)"[٢٩].

الرجاء هو واحدة من تلك العلامات، وربما أوضح علامة على الحبّ، لأنه تعبير عن الثقة الكاملة التي يمنحها المرء لله المحبوب، ثقة كبيرة إلى درجة تستطيع أن تولّد قوّة الرجاء على غير رجاء، والتحرّك في منطق أسمى من العقل، يتجاوز الحسابات والمخاوف التي تُنتِج فقط اختيارات صغيرة ومحدودة. ماذا تصبح حياة الإنسان إذا لم يتعلم أن يقفز فوق مستوى عقله؟ وأي مستقبل يُقدّم للشاب إن لم يتشجّع ليذهب أبعد من الحسابات البشرية، بل يبقى حذرًا وقلقًا في الواقع؟ أو يقوم باختيارات بناءً على مواقفه فقط (أو بناءً على اختبارات كفاءته)، أو على أساس أذواق شخصية أو على ضغوط اجتماعية أو ميول ثقافية أو حتّى على ميول السوق؟

من المهم أن نعلّم الشاب كم هي بائسة الحياةُ التي تعتمد على الحسابات وليس على الرجاء، أو تهتم بالدفاع عن نفسها بدلاً من أن تعرض نفسها، أو تكتفي بتكرار ذاتها بدلاً من اكتشاف الموارد الضخمة التي تمتلكها...

---

[29] B. Forte, *Piccola introduzione alla fede*, San Paolo, Cinisello B. 1992, pp 18-19.

"من لا يفقد عقله بسبب الحبّ، فهو لا يملك عقلاً (ولا حتّى القلب)"

كلا، لم أجد هذه العبارة مكتوبة في علبة حلوى. إنّ الرجاء في عمقه تعبيرٌ عن الحبّ. ولا توجد طريقة تربوية أفضل منه لتحرير الرجاء وتحويله إلى مسيرة حرية مؤثرة مع ما يتضمنه من مراحل الانتقال من "حرية من شيء" إلى "حرية من أجل". في هذا الصدد أريد على الأقلّ أن أؤكد ظاهرة غريبة تتكرر كثيرًا مع الأسف، وهي ظاهرة الشباب غير القادرين على العشق، أو يعشقون ظاهريًا فقط وربما بحذر، بسبب ما يشعرونه في داخلهم وما يظهرونه في خارجهم، ولكنهم غير قادرين بالتالي على البقاء في الحبّ.

أن تعشق يعني أن تحبّ دون شروط أو قيود، ولا حتّى قيود الزمن، وأن تقبل الآخر بدون مقابل، ليس بسبب حسابات بل لأنك تنجذب نحو جماله الكلّي، ليس مجرّد جماله الخارجي، وليست جاذبية بالحواس فقط، بل بالوجود السرّي بأكمله، الذي يتطلب التسليم الكامل للذات في يدي الآخر، الذي سيحتاج إلى وقت طويل بل لحياةٍ بكاملها ليعبّر عن نفسه في كلّ خصوبته. إنه سرّ العشق، كأنه ذكاء فائق أو بالأحرى الجنون في الحبّ الذي يجعلك

تعيش واحدة من أروع ما في طبيعة الإنسان، أو هو شرط لنكتشف وجهنا الجميل على مثال الله، العاشق بامتياز، الخالق الذي أحبّ الخليقة بجنون.

ولكن يمكن للعشق أن يتلاشى ويكون مجرّد جنون، دون أن يتبعه شيء، دون حرية التضحية من أجل الآخر، دون شجاعة تفحص سرّ الآخر وسرّ الحبّ، دون الصبر والثبات في المسيرة، أي بدون رجاء! فالمراهقون أصبحوا أخصائيين في علاقات "الكرّ والفر"، أي في علاقات غير ناضجة، في حبٍّ يزول بسرعة، في تحولات عاطفية كبيرة وقابلة للتغيير، في عواطف وهمية، في تبعيات متبادلة وخانقة، في روابط غير متناسقة لأنها مبنية على ما نسمّيه توقعات غير واقعية، أي على الادّعاء بأن على الآخر تلبية جميع احتياجاتي العاطفية بالكامل، عليه أن يعرف كيف يملأني... أو في روابط عقيمة لأنها مبنية على مجرّد بحث عن اللذة، وربما لا يجدها الشاب لأن بحثه يخلو من مخطط للمستقبل، ولأنه بدون رجاء[٣٠]...

[٣٠] إنها نفس حالة ذلك الشاب الذي حاول بإصرار أن يبدأ لقاءات للعلاج النفسي بسبب مشاكل في العجز الجنسي مع صديقته. أكدت الشابة من اللقاء الأول بأنها عرفته قبل وقت قصير في الملهى، ولم تكن تعرف غير رقم هاتفه، وأهملت العديد من جوانب حياته المهمة (ذوقه،

هل من الممكن أن يعيش شابان حبّهما كشريكي حياة في الخطوبة، منغلقين على أنفسهما، يشعران بالملل نتيجة تمسكهما الواحد بالآخر، يلبسان دائمًا كما تحكم المودا في محاولة لاقناع أنفسيهما بأن اللبس القصير جميل جدًا ويعطي شعورًا من الحرية، أو يخافان أن يرويا انجازاتٍ يعتقدان أنها مهمة بينما يبدو أن بعضها زائفة؟

هذا ما طرحه المونسنيور سيكاليني (Sigalini) في تعليمه خلال لقاء الشبيبة العالمي الأخير في كولونيا، مضيفًا:

أن تكونوا جيل "السراويل القصيرة" لا يعني أنكم لا تستطيعون أن تخترعوا طريقة جديدة لبناء عوائل مؤسسة على حبّ الله كما يعبّر عنه سرّ الزواج

قناعاته، اهتماماته، نظرته للحياة...)، وهو لم يكن ينوي بناء علاقة جدّية ونهائية معها، ولم يكن له نظرة على مستقبل العلاقة، بل ببساطة استغل وجودها معه. لم يكن صعبًا عليّ أن أنبههم بصعوبة إقامة علاقة على هذه الأسس، علاقة تفترض أن تؤدي فيما بعد إلى العلاقة الجنسية، علاقة لها نظمها وحاجاتها، أو ربما كان العجز الجنسي كردة فعل أو نوعًا من الانتقام النفسي والجسدي نابع من الرفض في أن يكون طرفًا في علاقة لا تعطي اعتبارًا لكرامة الآخر، علاقة شبيهة بالمونولوج (العلاقة مع الذات) تلغي الآخر بل تستخدمه فقط، دون أي نظرة على المستقبل ولا نية "البقاء في الحبّ!"

(Cfr. A. Cencini, *Vangelo giovane 2*, 75-80)

والنعمة الدائمة، ولا يعني أنكم لا تعرفون أن تعيشوا عفةً جديدة غير معتادة، لطيفة وجميلة لأنها قوة داخلية تعطيكم توازنًا في الجسد والروح وصفاءً في العلاقة وقدرةً على بناء مستقبلكم، وليس مجرّد قلق لإشباع حاجات الحاضر، وإعداد حياة شراكة بين شخصين من خلال مراحل نمو تجد فيها حتّى العلاقة الجنسية مكانًا في المسيرة، إنه موضوع رجاء لشيء لابدّ من التحضير له بعناية وانتظاره بفارغ الصبر...

إن اللهو، الوقت الحرّ، الجمال، الجسد، طعم الأشياء والعلاقات والعيد... كل هذه الأمور لابدّ أن تُعاش كلّ يوم بحيث تجعلونها تعبيرًا عن شخصكم، وبصورة خاصّة، عن استعدادكم للحبّ.

يمكننا أن نضيف أيضًا الرغبة في الانفتاح على جمال الآخر وتقبله في داخلنا، لتثبيت علاقة معه على أمدٍ بعيد، بل إلى الأبد، حتّى عندما يفقد هذا الجمال ملامحه الخارجية، يبقى على رجاء أن يكشف بصورةٍ أفضل الجمال الداخلي، ذلك الذي لا يستطيع العمر أو الشيخوخة أو المرض أن يمحيه.

العابدون الحقيقيون لإله يسوع المسيح هم الذين يستعيدون الثقة في أنفسهم وفي المستقبل والحياة،

يوحّدون العقل مع القلب، الرجاء بالحاضر، الرغبة بالواقع. يعرفون كيف يؤمنون ويحولون الحياة إلى ما يؤمنون به، لهم شجاعة بأن يرفضوا الأمور التافهة، وألاّ يفعلوا الأشياء التي لا ترضي في العمق[31].

لأن المشكلة في النهاية هي الآتية: سنجد أنفسنا مغدورين وغير قادرين على التمتع بالحياة، محتاجين إلى إثارات إضافية غريبة الأطوار. في زمنٍ ما كانت الكنيسة تصرخ ضدّ وسائل الترفيه غير المشروعة، كما تروي لنا قصص كهنة الرعايا الكبار في السنّ ومواعظهم الغاضبة. علينا اليوم أن نرفض العكس، أي نرفض عدم الترفيه أو نرفض الترفيه الأبله، أي عدم القدرة على الترفيه حقًا، أن نرفض السطحية في الرغبات، فقر الأذواق، القصور الدماغي لدى العديد من المجبرين على الترفيه المدمَّر والمدمِّر ممن لم يختبروا أبدًا الفرح الحقيقي الذي يملأ القلب، فتجدهم في النهاية منهكين وغاضبين أو يصبحون "ببغوات خائفة إلى حدّ الموت لأنها لا تشابه بعضها" (Jewett). فقط الحبّ الأمين والمملوء من الرجاء من أجل الآخر، آخر لن تستبدله بأي

[31] D. Sigalini, *Seguire la stella, anche sulla strada del ritorno*, in *Avvenire* 19/VII/2005, 18.

أحدٍ آخر، يشبع الإنسان بعمق ويحرر فيه الرجاء ويمنحه الشجاعة ليتجرأ ويقوم باختياراتٍ كبرى.

ربما سيبدو غريبًا للبعض، ولكن مسيرة النضوج العاطفي والتربية على الجنون هي مسيرة دعوةٍ أصيلة.

الرجاء في أزمنة اليأس

كما ذكرنا أعلاه، لا يولد الرجاء فقط كنتيجة مباشرة وعفوية للإيمان، بل خاصّةً عندما يواجه الإيمان والحياة الفشل والأزمة وعدم التناسق، وأمام الشعور بعدم التوافق بين ما اؤمن وبين ما يحدث... تمامًا كما حدث لبطرس على البحر عندما كان يغرق.

إذًا، نظريتي من وجهة نظر تربوية هي الآتية: يولد الرجاء في ذات اللحظة وفي ذات النقطة التي قد يولد فيها اليأس. فكما يقول ميرتون (Merton*) بقوّة: "لا يستطيع أحد أن يعرف الرجاء إن لم يختبر بأن الرجاء هو مثل اليأس!".

* قد يشير المؤلف إلى توماس ميرتون، وهو راهب وكاتب كاثوليكي أمريكي (١٩١٥-١٩٦٨) (المترجم).

تستطيع اللحظة أو اللحظات التي فيها يقلّ الإيمان وكذلك الرجاء، لأسباب مختلفة سواء بسبب مخاوفنا أو بتأثير الحضارة المحيطة، أن تتحول إلى لحظاتٍ تربوية، مثل جنين ينمو، وأن تنمّي الرجاء نفسه.

عندما يواجه الإنسان اليأس، أو يشعر أن صرخة اليأس تخترق دواخله، فقد تكون أيضًا صرخة الرجاء، لحظة ولادته، وهي لحظة تدبير لابدّ أن يفسّرها المربّي بذكاء وفطنة، وهو يعلم أن الشاب لن يكون مستعدًا أبدًا كما في تلك اللحظة للانفتاح على الرجاء، لأنه عندها بأمسّ الحاجة إليه، ولأن هاوية العدم شرّعت أبوابها أمامه في تلك اللحظة، هاوية الفراغ والنهاية والموت واللامعنى والفشل والغلبة والألم والظلم والموت... لا يُثار السؤال عن المعنى ولا البحث عن الرجاء في قلب الإنسان كما في تلك الظروف!

لا ننسى، إذًا، وجودنا في تلك اللحظات المرعبة. فوسط مسؤولياتنا الكثيرة التي فيها ننتبه إلى الحاجات المتنوعة، توجد أيضًا مسؤولية التعزية والرجاء. لا يجب أن نرتكب خطأ الكثير من العاملين في الحقل الراعوي الذين يخافون من مواجهة الشباب في تلك اللحظات، أو يملكون فقط كلمات لهذه المناسبة، وهم لا يعرفون، نتيجة

خبرتهم الشخصية الضعيفة، ذلك الرجاء الذي قد يولد من عكسه، أو لا يملكون الشجاعة لمواجهة اليأس!

إذا كنّا نعيش اليوم في ثقافة اليأس، فقد يكون فائدة لبناء أرضية تنتظر بقلق وبنفاذ صبر بذرة الرجاء، تلك البذرة التي قد تولّد في القلب الاستعداد للدعوة: الرجاء بأن نكون أنفسنا في النهاية، حسب مشروع رجاء الله!

الرجاء حيث وعندما تكون الحياة ضعيفة

تشير وثيقة مجلس أساقفة إيطاليا إلى بعض مجالات الحياة الإنسانية حيث تصبح شهادة الرجاء المسيحي مهمّة جدًا. واحدة من هذه المجالات مبنية من ظروف يبرز فيها ضعف الإنسان. يبدو المجتمع التقني الحالي وكأنه قادر على شيء (كما يريد أحدهم أن يقنعنا) لكنه لا يستطيع أن يلغي الضعف، بل يخفيه أو يحاول اخفاءه، متجاهلاً إمّا ثقل معاناة البشر أو قيمة كرامتهم. بينما "يبرز الرجاء المسيحي حقيقته خاصّةً في حالات الضعف، فهو لا يحتاج أن يخفيه بل يقبله بحنان ويعيد بناءه ويغنيه بالمعنى في مسيرة الحياة".

لذلك لا غنى عن تربية هذه العقلية لكي تصبح ثقافة حقيقية تحترم الإنسان، وشعورًا عامًا مستنيرًا بالرجاء المسيحي، ونمط حياة نحو الكون خليقة ضعيفة في علاقة مع كل خليقة متسمة بذات الضعف. وفي الواقع "الحضارة التي تعير اهتمامًا لكل جوانب الوجود هي الحضارة الوحيدة التي تصبح على مستوى الإنسان. تعليم وقبول الطفل وذلك الذي لم يولد بعد، الاعتناء بالمريض، إنقاذ الفقير، ضيافة المتروك والمهمش والمهاجر، حماية المسنّ، كلّها أمور تعبّر الكنيسة من خلالها أنّها حقًا معلّمة الإنسانية"[٣٢]، وعلامة رجاء وأرض خصبة تزهر فيها دعوات منفتحة على الرجاء.

يشتاق زمننا كثيرًا إلى الرجاء، لذلك نضيف الآن أن هناك أكثر من سؤال اليوم من الله بانتظار الإجابة[٣٣]. فلنؤمن به بعيدًا عن المظاهر المضادّة، لأنه على من يتبع المسيح القائم أن يشعر بالاشتياق ويعرف التساؤل والانتظار، لكي يجد الإجابة في يسوع القائم، رجاء العالم! من الأفضل جدًا في النهاية أن نلتصق برجائنا ومن أجل رجائنا، من أن تقبلنا وتمدحنا الحضارة التي لا

[32] CEI, *Testimoni* 15c.
[33] Cfr. D. Sigalini, *Seguire*.

زالت تلعب بنار العدمية والتدنيس، فتوقعنا في الاستياء العام وغير الطبيعي.

الفهرس

مقدمة المترجم	٣
مقدمة الترجمة العربية	٥
تقديم	٩
مقدمة	١٤
الرجاء من وجهة نظر نفسية تربوية:	
العناصر التي تؤسسه	١٧
موضوع الرجاء	١٧
الشخص الذي يرجو	٢٠
أساس الرجاء	٢١
الجزء الذي يرجو	٢٢
الواقع المحيط	٢٤
طرق التربية على الرجاء	٢٦
الثقة في الحقيقة	٢٦
روحانية الخروج	٢٧
القيامة كأساس	٢٩

تمرين على القدرة في الرغبة ٣٠
تكامل الخبرات المُعاشة ٣١

ديناميكة الرجاء النفسية ٣٣

من الإيمان إلى الرجاء، من الرجاء إلى الإيمان ٣٣
جنون الرجاء ٣٥
الرجاء واليأس ٣٧
الرجاء والدعوة ٤٠

بعض الطرق التربوية ٤٣

المربّي، إنسان رجاء ٤٣
الرجاء يعني تقدير الآخر ٤٦
"أيها الشاب، مَن انتزع منك الرجاء؟" ٤٨
مسيرة الإيمان في يسوع القائم ونموّ الرجاء ٥٢
تمييز صوت من يحب ٥٤
الرجاء على غير رجاء ٥٧
"من لا يفقد عقله بسبب الحبّ، فهو لا يملك عقلاً (ولا حتّى القلب)" ٦١
الرجاء في أزمنة اليأس ٦٦
الرجاء حيث وعندما تكون الحياة ضعيفة ٦٨